الفنان كمال عبيد (1918-2003)

مقال وجهة نظر

* حمدي أحمد عبد الله
* أستاذ التصوير المتفرغ، وعميد كلية التربية الفنية، جامعة حلوان، الأسبق
البريد الإليكتروني: Hamdy-abd-alla@fae.helwan.edu.eg

تاريخ المقال:
- تاريخ تسليم المقال الكامل للمجلة: يونيو 2022
- تاريخ موافقة هيئة التحرير على النشر: 3 أغسطس 2022

الكلمات المفتاحية: الفنان كمال عبيد

عضو نقابة الفنانين التشكيليين- المصممين، المعلمين، رابطة خريجي معاهد وكليات التربية، عضو مؤسس جماعة الفن والحياة. تدرج في السلك التدريسي حيث عمل مدرسا للتربية الفنية بالتعليم العام (1941-1947). ثم عين مدرسا مساعدا بمعهد التربية للمعلمين (قسم الرسم) عام 1947، وتدرج حتى درجة أستاذ للنحت والخزف كلية التربية الفنية، جامعة حلوان.

ولعب دورا مهما في إنشاء أول قسم للتربية الفنية بكلية التربية جامعة الملك سعود عام 1974، وتم إيفاده إلى دولة البحرين لتطوير مناهج التربية الفنية في التعليم العالي عام 1985، كما شارك أيضا في إنشاء كليات التربية النوعية عام 1988، عمل باللجنة العلمية الدائمة لترقية هيئة التدريس، وتم ترشيحه لنيل جائزة الدولة التقديرية (1995) وجائزة مبارك (1999). لعدة سنوات نال جائزة (أصدقاء مختار)، مثل مصر في العديد من المعارض الدولية الخارجية وله مقتنيات في (إيطاليا- فرنسا- روسيا- انجلترا- أمريكا- السعودية- البحرين- دولة الإمارات العربية) له مقتنيات بالمتاحف (الفن الحديث- وزارة التربية والتعليم الحربي- البلدية بالإسكندرية) قاعة المؤتمرات الكبرى بالقاهرة بدار الأوبرا المصرية.

قام بعمل العديد من الأعمال النحتية (تماثيل- بورتريهات) سواء لزعماء أو شخصيات عامة، وقام بتنفيذ مجموعة (بورتريهات) للأستاذ الرواد بكلية التربية الفنية إضافة إلى أكثر من مائة تمثال وبورتريه لشخصيات عامة متميزة أخرى.

وكان اهتمامه مركزا على رؤية التراث من جانب معاصر واتخذ منه وكذلك الطبيعة وبخاصة دراسة الحيوان والطبيعة بعناصرها المختلفة، وقدم أبحاثا هامة في تطوير الإناء الخزفي من التراث الفرعوني والإسلامي 1962 ذات وظائف مختلفة وله بحث آخر لتطوير الإناء.

كان من أهم مسئوليات العمل الوظيفي كأستاذ للفن والتربية هو دوره الفعال والمؤثر في إعداد كوادر من الفنانين والمثقفين والمبدعين لاستكمال مسيرة الحركة الفنية المعاصرة بإبداعاتها وثقافتها والتي مازلت تحمل الراية في قيادة حركة التربية الفنية في مصر والعالم العربي.

من خلال تتبع جوانب الفنان كمال عبيد فإنه أولا استطاع أن يرتبط بالإنسان وما يحتاجه الإنسان في إشباع رغباته التعبيرية والاحتياجية وقد نجح وحقق ارتباطه بالأرض وما عليها من بشر. كان يملك فكرا ناقدا سليم المنهاج، بجانب كيفية التعامل الإنساني مع المبدعين، حيث تميز بأنه كان أستاذا فنانا متأملا، ومفكرا ومبدعا ، امتلك القدرة على التخيل، والتحليل، والاختيار، والتعبير. كان فنانا فيلسوفا له رؤية شاملة، يستطيع بثاقب فكره، النفاذ إلى ما وراء الشكل الظاهر للعمل الفني.

في الوقت الذي جذب فيه بريق الفن بعض المشتغلين بالتربية الفنية والفن التشكيلي وجعلهم ينصرفن إلى الجانب الشخصي في عملية الإبداع الفني، يعبرون عن أنفسهم فحسب، كان كمال عبيد يؤكد في أعماله الفنية على دور الفن في التربية بعامة وتربية النشء بخاصة.

فالعمل الفني عنده ليس مجرد مظهر أو قالب أو تقنية، وإنما هو وعاء يعكس مضمونا ورسالة ويطرح فكرا وفلسفة... إنه كان معنيا باقتناص المضمون، كان كمال عبيد أحد الأفراد القلائل الأوائل الذين قام عليهم المعهد العالي للتربية (كانوا سبعة أساتذة يقومون بتدريس النواحي الفنية فقط) وكان المنتدبون من الخارج أعلاما في المواد الثقافية والتربوية المتعددة الموجودة ضمن مناهج الدراسة.

وعندما تم إنشاء دراسة خاصة في الثقافة الفنية بإشراف الأستاذ حامد سعيد اختير الفنان كمال عبيد ليكون من ضمن مؤسس أصدقاء الفن والحياة. إن تلك الجماعة كان من أهم مهامها الرد الفعلي على بعض الفنانين الذين فرقوا بين فنون النفع والفنون البحتة، وكلا الاتجاهين. والتعريف بوظيفة الفن الحقيقية التي يجب تتبعها حتى لا نضل الطريق وتصبح فنونا مجرد هراء والغوص في مفاهيم التعبيرات السطحية لمفهوم الفن دون النظرة الجادة للاحتياج الحقيقي لوظيفة الفن الحقيقية.

كانت جماعة أصدقاء الفن والحياة بمثابة تمرد سلبي من نوع ثورة (غاندي) الذي تصدى للإمبراطورية الانجليزية دون أن يرفع سكينا أو يمسك بندقية... فأصدقاء الفن والحياة- ومنهم كمال عبيد- لعبوا دورا هاما في خلخلة الجمود الأكاديمي والترهل التقني والإتباع النقلي للنماذج الغريبة.. وفي ذلك الوقت ظهرت جماعة (الفن والحرية) وتبعتها جماعة (جانح الرمل) التي أسسها جورج حنين ومعه زمرة من الفنانين المتمردين تشكيليا واجتماعيا وسياسيا (رمسيس يونان- فؤاد كامل- كامل التلمساني) الذين رفعوا شعار (يحيا الفن المنحط) ودمروا جسور التواصل مع (أندريه بريتون) وزمرة السرياليين في كل من (فرنسا – إيطاليا- المكسيك- روسيا) إن هذه الجماعة الثورية كانت تقف من ناحية، وعلى الجانب الآخر تقف جماعة أصدقاء الفن والحياة بإيقاعها الهامس ونزعتها التصوفية بإيقاعها التأملي.

في ظل هذا المناخ الذي انتهجته الواقعية الخالصة البعيدة عن أي ملامح أسلوبية. كان هذا المناخ الذي عاصره الإبداع المصري في منتصف الأربعينات، وعلى الرغم من هذا التباين الظاهري الواسع بين المذهبين، فإن كلا منهما انتبه لعمق وأصالة تجربة الآخر مما يدل على اتساع أفقهما معا ووعيهما برحابة عالم الفن القادر على احتضان التيارات المخالفة ديمقراطيا.

إن فكر كمال عبيد نما وترعرع في هذا المناخ الفكري ورغم اختلافهما في الطريقة إلا أنهما اتفقا على تحرير الفن المصري من النقل. وفي الظل هذا المناخ الفكري أبدع كمال عبيد مجموعة من الأعمال الهامة تميز بأنه كان فيها سباقا ضمن أصدقاء جماعة الفن والحياة.. فقد أراد لأعماله إبداع أسلوب غير سلفي من ناحية وغير متمسح بتيارات الحداثة من ناحية أخرى. فاتجه إلى الموروث الذي أعطاه الكثير من أسراره الدفينة، وهذا لم يكن من السهولة واليسر في هذه الفترة، ولكن بإصراره ودراسته الواعية قد استطاع ان ينفذ إلى موضوعية فهمه له. حيث لم ينزلق إلى المفهوم السطحي لتقليد التراث. فقد فسر بعض النقاد أن التراث هو ظل الإنسان، وعندما يكون التراث ظلا للإنسان فهو خلفه وعلى الأخص عندما يسعى الإنسان إلى التقدم. فالتقدم هو النور والأول.. فالظل يكون في الخلف والتقدم للأمام. إن التراث بالنسبة إليه لا يمكن الفرار منه ولكن يمكن الاستفادة منه وهو يفضل أن يكون منتميا له وليس خارجا عنه.

فهذا الإرث هو جزء منه، إنه ارتبط ارتباطا جذريا بتلاحمه مع المؤثرات التشكيلية والعقائدية، حيث إن العقيدة قد تكون جزءا هاما في تشكيل البشر للوصول إلى الارتباط الكلي للمفهوم الحضري الذي يقوم على البناء العام للإنسان. إن المكونات الحضارية لا تتغير بمرور العصور عليها غير شكلها وصياغتها في إطار عناصر جديدة- صياغات جديدة- قد تبدو للوهلة الأولى أنها جديدة وهي ليست بجديدة. إن أصدقاء جماعة الفن والحياة التي كان كمال عبيد من مؤسسيها أرادت أن تعود إلى جذور التواصل مع البيئة وعناصرها مباشرة مثل أساتذة النهضة والألمان والهولنديين أمثال (ديورر وهلباين وفان آيك) الذين كرسوا جانبا هاما من بحوثهم الفنية في دراسة مرفقة للأرنب والبقرة وغيرها من الكائنات الأليفة.

فالتراث والطبيعة كانت من اهم المنطلقات الفكرية التي سيطرت على إنتاجه الفني في مجالات النحت والخزف والتصوير وهو جانب قد لا يعرفه الغالبية العظمى عنه، وهو أنه كان مصدرا فائقا فأنتج مجموعة من اللوحات الزيتية صغيرة الحجم كبيرة القيمة تركز أغلبها حول موضوع الطبيعة (المناظر الخلابة)، إن أعماله في التصوير ترتفع قيمتها إلى الأساتذة الكبار في الفن المصري الحديث أمثال (سعد الخادم- مصطفى الأرنؤوطي- حمدي خميس- شفيق رزق- عبد الله جوهر.. وآخرين قلائل)، فالطبيعة عاش معها بألفة وتوافق.

إن تمثل حياة الصوفيين والزهاد في مثوله أمام هضبة المقطم أو عظمة حيوان أو فسيلة نخلة يجاهد في رسمها يوميا لساعات طويلة ولشهور ممتدة.. ولا يفعل سوى التركيز المكثف للعنصر الذي كرس نفسه لرسمه.

فهو كفنان قد عالج بأستاذية وعمق مجالات الإبداع المختلفة ففي النحت نلحظ رصانة تكويناته المنحوتة في الخشب لموضوع الأمومة وفي الحجر الصناعي والفخار والمصيص لموضوعات رمزية تعبر عن النيل محتضنا عنصري الوادي في السودان ومصر أو ترفع شعار الحرية والنهضة، ومنحوتات أخرى ترمز إلى إيزيس الباحثة عن روح أوزيريس لتوحدها وبعثها من الموت، ومنها ما يرمز إلى الجمهورية، وما يمثل زوجة شيخ البلد الفلاحة الشامخة الصامدة أمام تحديات الزمن، وزوجها شيخ البلد، صاحب المهابة والهمة، والصعايدة في حلقة تحطيب، وتناول أيضا موضوعات نحتية أخرى تبرز مرحلة التحول السياسي، كما برع أيضا في إنتاج بورتريهات الشخصية أو الوجوه الشخصية.. إنها ليست نقلا ميكانيكيا أو حرفيا للشخصية.

فتجد نفسك ترسو بعينيك على شواطئ التمثال لتبدأ في رحلة حول معالم العيون والأنف، الجبهة، الأذن، الشعر ، إنها رحلة تحكمها أنفاس الفنان.

لقد اتبع كمال عبيد في تشكيلاته النحتية مجموعة من السمات، ارتبطت بظهور طابع الاتزان في أوضاع التماثيل وإظهار الكتل والأحجام والحساسية والرقة في التشكيل والبساطة في التكوين، واستغلال ظاهرة الظل والنور في تجسيد الأشكال، ولقد تأثر كمال عبيد بفن النحت المصري القديم في اطمئنان الحركة وهدوئها، حيث تقتصر حركة الجسد البشري على تقديم القدم البشرية خطوة إلى الأمام، ونادرا ما تميل أجسادهم إلى الأمام، حيث تميز الفن المصري القديم بالهدوء وإثارة الراحة والطمأنينة في النفس.. كما تميز أيضا بالبساطة والاتساق وذلك في الأوضاع والتقاليد التي التزم فيها الفنان المصري بالاتساق وامتازت تماثيله بالاتزان.

لقد قام الفنان بعمل العديد من (بورتريهات) لأصدقائه وأشخاصه المقربين إليه وإن دل هذا على أنه لم يفقد حق الاختيار- فالفنان كمال عبيد ليس هو من هؤلاء الفنانين الذين يؤجرون إحساسهم لغيرهم- أو نظير بعض الماديات- إنه فنان يتجلى بإحساسه المتفرد في تعبيراته وعمقها. فأعماله اكتسبت حيوية تعبيرية تجمع بين المثالية والواقعية، فقام بعمل بورتريهات لشخصيات عامة منها (الزعيم جمال عبد الناصر، د/ طه حسين، الشيخ سلامة حجازي، الشيخ الباقورية، إسماعيل القباني، يوسف سيده، حامد سعيد، محمد الحنفي، على باشا مبارك، وكذلك زملاؤه الفنانون مصطفى الأرنؤوطي، د/حمدي خميس، عبد الرازق صدقي).

يعد كمال عبيد نحاتا يحمل سمات نهلت من نفس المنهل الذي أخذ منه محمود مختار، وهو النحت المصري القديم، حيث كان جوهر وفكر الفنان المصري القديم هو الديمومة والخلود بعد الموت، وعكست أعماله النحتية الثبات والمعمارية والصرحية والتكتل واختيار الخامة التي تناسب المكان.

وفي مجال الخزف احتل كمال عبيد موقع الريادة وكان له مدرسة في استلهام التراث المصري والإسلامي في فنون الإناء والبلاطات والحلي الخزفية، متبحر ومبدع في استخدام الطينات المختلفة والمزججات الفوقية والتحتية.

فقدرته على الرسم برزت وتأكدت في أعماله الخزفية فنرى في أحد أعماله يرسم وحدة واحدة من طائر أو حيوان بحجم كبير تأخذ مركز الصدارة في سطح الطبق الخزفي ويحيط بها زخارف نباتية وخطوط متشابكة تغطي الأرضية. إن رسم وحدة الطاووس شاع استخدامه في فن الخزف الإسلامي في القرن الخامس عشر- بشكل زخرفي رشيق تظهر فيه التفاصيل الدقيقة، مما يدل على كفاءة في تمثيل خصائص الطائر.

ولم يقتصر الفنان كمال عبيد على الجانب العملي في الإنتاج الفني بل تأكد مساهمته بشكل فعال في الجانب العلمي في أبحاثه نشر بعضها في كتاب (الفن المصري المعاصر)، وكتاب (حامد سعيد). وكتاب (الإناء الخزفي من التراث الفرعوني) وتطوير الإناء الخزفي من التراث الإسلامي.

ولقد قام العديد من الأبحاث للماجستير والدكتوراه التي تناولت الجوانب المتعددة لمشواره الفني في مجالي النحت والخزف بلغت ست رسائل (أربع للماجستير، اثنتان للدكتوراه) منذ عام 2000 حتى 2007.

إن مسيرة الفنان كمال عبيد الفنية تؤكد ريادته ضمن رواد الفن والتربية الفنية في مصر والعالم العربي، فقد ساهم بشكل فعال ومؤثر في إبراز دورها في تغيير النظرة للحياة والطبيعة والتراث، وقد خاض الكثير من التحديات أمام التيارات الفكرية والتقليدية من أجل الكشف عن حلول من خلال منظور مبتكر وجديد في مطلع الأربعينات والخمسينات من القرن الماضي والذي كان يسيطر عليه مناخ محكوم بنظرة جمالية تتسم بجمود الرؤية، وعدم تقبل الجديد المبتكر، وهنا كان الصدام والتحدي والانتصار وتلك سمة هامة رئيسية في مفهوم الريادة التي ارتبطت باسمه.

إن الفنان المربي الإنسان كمال عبيد كان وسيظل يذكره تاريخ التربية الفنية بمصر والعالم العربي والفن التشكيلي من خلال إنجازاته الفنية والتربوية في كل منهما، وسيظل رمزا من رموز الريادة مع كوكبة من رواد التربية الفنية. فشخصيته وإنتاجه الفني في مجالي النحت والخزف هي منار يهدي الأجيال اللاحقة.

المصادر:

1. حكمت محمد بركات (2004): "بين الأصالة والمعاصرة" المحيط الثقافي، العدد التاسع والعشرون.
2. فكري محمد عكاشة (2000):"الجوانب الفلسفية والجمالية في استلهام الطبيعة لمدرسة الفن والحياة"، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية التربية الفنية، جامعة حلوان.
3. حنان محمد شرف (2002):"دور خريجي التربية الفنية في النحت المصري المعاصر"، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية الفنية، جامعة حلوان.
4. دعاء أحمد عبد الحميد (2006): "دراسة أعمال خزافين مصريين معاصرين والإفادة منها في إبداعات خزفية للفن والحياة وأثر ذلك في مجال التربية الفنية"، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية الفنية، جامعة حلوان.
5. هبة محمد السعيد بدر (2006): "كمال عبيد مدرسته الفنية، وآثارها التربوية ودورها في تدريس النحت"، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية التربية الفنية، جامعة حلوان.
6. إيمان محمد إبراهيم بدوي(2007):"خزفيات الفنان كمال عبيد والإفادة منها في إثراء مجال تدريس الخزف"، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية الفنية ، جامعة حلوان.
7. إيمان أحمد السيد أبو النور (2007):"التراث والمعاصرة في مختارات من رواد الخزف المصري المعاصر"، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية التربية النوعية، جامعة القاهرة.